تمهيد

إن أسوأ أوقات شهدها التاريخ الأوربي كانت في القرن الرابع عشر، أثناء حرب المائة سنة وما بعدها، في القرن السابع عشر إبان حرب الثلاثين سنة وفي النصف الأول من القرن العشرين. وقد يكون القرن الحادي والعشرون أسوأ من أي من هذه الفترات.

كانت الفترتان الأوليان أزمنة انهار فيها النظام، حين كانت الكنيسة والدولة وروابط التزام أخرى تفقد سلطتها في مجال معاقبة الاعتداءات التي يقوم بها البشر. في القرن الرابع عشر، كان نظام الشهامة القديم يخبو، وكانت الروابط الإقطاعية التي أصابها الوهن في حروب لا نهاية لها لا تفسح المجال للروح الوطنية، وكانت الكنيسة منقسمة بسبب إقامة فرنسا بابوية أفينيون (Avignon). وبعد حرب المائة سنة، جابت عصابات الجنود مناطق فرنسا المهدمة وأخذت تنشر الرعب في الأرياف.

في القرن السابع عشر، انقسمت الكنيسة بفعل الحركات البروتستانتية وكانت الحروب التي تلت ذلك حروباً

بين الدول وحروبا دينية على السواء. وإذ جلبت هذه الحروب قوة الدولة وتعصب المؤمنين، فإنها نشرت الخراب في أوربة الوسطى بلا حدود وبلا رحمة. وقد بلغ النظام الاجتماعي حافة الانهيار. وبحسب بعض الروايات، فقد مات ثلث سكان ألمانيا. ولا يزال مواطنو مدينة Oberammergau البافارية يقدمون كل عشر سنوات في احتفال يتسم بالانفعال العاطفي الشكر لخلاصهم من السويديين.

وبالنسبة لمعظم البلدان خارج أوربة أيضاً، فإن أسوأ ذكريات التاريخ هي فترات الاضطراب: حقبة الدول المتحاربة في الصين، مثلاً. أما العصور الذهبية فهي عادة أزمنة الحكومات القوية.

أوضحت الأزمنة الأوربية في القرن العشرين أن العكس يمكن أن يصح أيضاً. فحروب القرن العشرين كانت أولى الحروب العظمى للمجتمع الصناعي، حروب الآلات فضلاً عن حروب الرجال، وكانت أيضاً حروب الدول بالغة القوة القادرة على تعبئة مجتمعاتها بشكل لم يسبق له مثيل. وقد جعلتها القومية والإيديولوجية أشد فتكاً. في هذه الكارثة المتعددة، فإن أهم شيء وحيد ضل السبيل هو أن التكنولوجيا تغلبت على النضج السياسي. فقد كان الذين استهلوا الحرب العالمية

الأولى قد توقعوا أن تكون أشبه بالحروب القصيرة التي اندلعت إبان طفولتهم، دون أن يدركوا قدرة عصر صناعي على إرسال الرجال والذخائر بلا نهاية إلى الجبهة. وخلال بقية نصف القرن ذاك، تحولت آلية الدعاية والسيطرة والقتل ضد السكان المحليين والأجانب في ألمانيا والاتحاد السوفياتي وفي بلدان أخرى. وبعدئذ، ولوهلة ما، بدا وكأن الثورة النووية يمكن أن تكمل انتصار التكنولوجيا على الجنس البشري، ولكن عادت الحكمة السياسية نوعاً ما وحدث توقف في سعي الحضارة إلى تدمير ذاتها.

إن القرن الجديد معرض لأن تسحقه الفوضى والتكنولوجيا. هذان العاملان المدمران للتاريخ يمكن أن يعزز أحدهما الآخر. وقد خلقت القرون الغابرة ذخائر على شكل تعصب وطني وإيديولوجي وديني تكفي لتوفير بواعث للتدمير.

يشير انتشار الإرهاب وأسلحة الدمار الشامل على السواء إلى عالم تفقد فيه الحكومات الغربية السيطرة. يمثل انتشار تكنولوجيا الدمار الشامل إعادة توزيع هائل كامن للقوة بعيداً عن الدول الصناعية (والديمقراطية) المتقدمة تجاه دول أصغر قد تكون أقل استقراراً وليس لديها إلا القليل لتجازف به في عالم يسوده النظام، أو حتى على نحو أكثر إثارة، قد

تمثل إعادة توزيع للقوة بعيداً عن الدولة نفسها وتجاه الأفراد، أي تجاه الإرهابيين والمجرمين. إذا كان مقدراً على الانتشار أن يحدث على هذا النحو، فلن تكون الحكومات الغربية فقط هي التي ستفقد السيطرة، وإنما جميع أولئك الناس الذين لهم مصلحة في عالم يسوده النظام.

في الماضي، إذا كان لحركة إيديولوجية أن تكون مدمرة، كان يتعين عليها أن تكون واسعة الانتشار كي تحشد ما يكفي من الدعم لتولي السلطة. ولربما كان يتعين وجود تظلمات حقيقية وراءها. ومن الآن فصاعداً، سوف تتمكن جماعات صغيرة نسبياً من إحداث ذلك النوع من الضرر الذي لم تكن تستطيع تحقيقه في السابق سوى جيوش دول أو حركات ثورية رئيسية. إن عدداً قليلاً من المتعصبين بحوزتهم قنبلة قذرة (قنبلة تنشر مادة إشعاعية) أو أسلحة بيولوجية سيكون بمقدورهم إحداث وفيات على نطاق غير متصور سابقاً. إن المحاولة التي قامت بها طائفة Aum Shinirikyo باستخدام الانتراكس في طوكيو قد فشلت، ولكن عاجلاً أم آجلاً سوف ينجح أحد حلفائها في مكان ما من العالم. ولربما يستطيع ستون شخصاً شن هجوم إرهابي خطير، شريطة إن يكونوا يتمتعون بما يكفي من الالتزام

والجرأة والكفاءة (أو بدلاً عن ذلك، أن يكونوا متعصبين، متهورين أو محظوظين). إن واحدا بالمليون من السكان يكفي. وإن الانعتاق والتنوع والاتصالات العالمية ـ كل الأشياء التي تعد بعصر من الثروات والإبداع ـ يمكن أن تحدث أيضاً كابوساً تفقد فيه الدول التحكم بأساليب العنف ويفقد فيه الناس التحكم بمستقبلهم، إذ ترتكز الحضارة والنظام على السيطرة على العنف: إذا أصبح من المتعذر السيطرة على العنف، فلن يكون هناك نظام ولا حضارة.

إن المقالات الثلاث في هذه المجموعة هي تأملات غير مباشرة من زوايا مختلفة لهذه الحالة وما يمكن فعله بشأنها.

تصف المقالة الأولى حالة العالم وحالة الدولة بعد عقد من نهاية الحرب الباردة. إن القوة الأمريكية هي أبرز سمة من سمات هذا العالم، ولكن على المدى الطويل فإن أهم الحقائق قد تكون نهاية الإمبراطورية وتحول الدول عبر العولمة. ويعد بروز نظام ما بعد الحداثة الأمني في أوربة أكثر السمات إيحاء بالأمل. وإن أكثر السمات مدعاة للقلق هي تعدي الفوضى على العالم المتمدن ـ من حوله وداخله ـ قد تستطيع أوربة إيقاف اقتراب الفوضى عبر البلقان أو حتى عبر البحر البيض المتوسط، ولكن

قد يبدو من الأصعب التعامل مع الفوضى في عقر دارها وفي المدن الصناعية الآخذة في الانحدار.

لن يحدث الوقوع في الفوضى سريعاً، إذ لا يزال ثمة وقت لمعالجة ما سوف تسببه من مشكلات. فقد يفلح لتعامل مباشرة مع الإرهاب وأسلحة الدمار الشامل في احتواء بعض المخاطر ولكنه لن يضع حداً لها. يجب استخدام الوقت الذي يتم شراؤه بالعمل المباشر من أجل حل بعض المشكلات الأساسية. إذا كان على الدول الاحتفاظ بالسيطرة، فإن أول شرط يقضي بأن تعقد الواحدة مع الأخرى صلحاً كي يمكنهما معاً من مجابهة خطر الفوضى المشترك. إن خلفية من السلم فيما بين الدول أمر أساسي لسياسة الاحتواء والوقاية الذاتية على السواء، فالدول تضعف وتدمر نفسها من خلال الحروب. والنزاع يوقد التعصب ومن ثم يعطي المتعصبين وسائل التدمير. فلولا الحروب في أفغانستان، لما كان هناك أسامة بن لادن.

تدور المقالة الثانية حول كيفية صنع السلام. إنها تبدأ بمثابة تأمل عام في الدبلوماسية ولكنها تنتهي بنظرة على شروط صنع سلام ما بعد الحداثة. إنها مكتوبة إعجابا بالرجال والنساء الذين بنوا السلام الأوربي والعلاقة عبر الأطلسي بعد الحرب العالمية الثانية، وهو المثال الوحيد على سلام دائم بين الأمم.

وفي نهاية المطاف، يمكن لدروس هذا النجاح أن تعلّمنا وتعلّم غيرنا كيف ننشر السلام على نطاق أوسع. ولكن السؤال هو: هل سيكون لدينا الوقت الكافي؟ كان جمع البلدان الأوربية معاً بعد قرون من الحروب إنجازاً رائعاً ولكن احتاج تحقيقه إلى كارثة وقد تم في خلفية تاريخ وثقافة مشتركين. إن أكثر شيء مدعاة للقلق بشأن العولمة هو أنها تجلب لنا مزيداً من الأعداء الأجانب الجدد الذين لا نكاد نفهم بواعثهم.

قد يعطينا العلم الحديث الذي أعطانا الأسلحة وسائل السيطرة عليها. ولكن التاريخ يوحي بأن حل مشكلات التكنولوجيا هو سياسة أفضل بدلاً من تكنولوجيا أفضل.

والمقالة الثالثة عبارة عن تعليق حول أوربة الحالية. إذا كان علينا البقاء خارج العاصفة التي تهددنا في العقود القادمة، علينا أن نسخّر من أجل الخير ما تمثله أوربة من قوة كامنة هائلة. لن يكفي ترك العالم للولايات المتحدة إذ إن مشكلات السلام في القرن الحادي والعشرين هي في غاية الصعوبة، وإن ظروف الحرب في غاية الفظاعة بحيث يجب على الجميع الإسهام معاً.